وذلك انهما يعبّران عن المعاني الّا انّ اللفظ معنى متحرك والخط معنى ساكن وهو وان كان ساكناً فانهُ يفعل فعل المتحرك بايصالهِ كلّ ما تضمّنهُ الى الافهام وهو مستقرّ في حيّزه ومكانهِ. فمن ثمّ كما ان اللفظ فيهِ العذب الرشيق السائغ في الاستماع كذلك الخط فيهِ الرائق المستحسن الاشكال والصور وكما ان اللفظ فيهِ الجزل الفصيح الذي يستعملهُ مصاقع الخطباء ومفاليق الشعراء والمبتذل السخيف الذي يستعملهُ العوام في المكاتبة والمخاطبة كذلك الخط فيهِ المحرَّر المحقق الذي تُكتب بهِ الكتب السلطانية والامور المهمّة وفيهِ المطلَق المُرسَل الذي يكاتب بهِ الناس ويستعملونهُ فيما بينهم. وكما انّ اللفظ يقع فيهِ لحن الاعراب الذي يُهجنهُ كذلك الخط يقع فيهِ لحن الهجاء. وكما انّ اللفظ اذا كان مقبولاً حلواً رفع المعنى الخسيس وقرّبهُ من النفوس وان كان غثّاً مستكرهاً وضع المعنى الرفيع وبعّدهُ من القلوب كذلك الخط اذا كان جيّداً حسناً بعث الانسان على قراءة ما أُودع فيهِ وان كان قليل الفائدة. وان كان رديئاً قبيحاً صرفهُ عن تأمّل ما تضمّنهُ وان كان جليل الفائدة. ولمّا اشترك اللفظ والخطّ في الفوائد العامّة التي جُعلت فيهما وقع الاشتراكُ ايضاً بين آلتهما اذ آلة اللفظ اللسان وآلة الخط القلم وكلّ منهما يفعل فعل الآخر في الابانة عن المعاني الّا انّ اللفظ لمّا كان دليلاً طبيعيّاً جُعلت آلتهُ آلةً طبيعيّة. والخط لمّا كان دليلاً صناعيّاً جُعلت آلتهُ آلةً صناعيّة. ولمّا تقاسمت الآلتان الدلالةَ كانت احداهما مناب الاخرى فاوقفوا اللسان على القلم فقالوا: « الاقلام ألسنة الافهام » وشركوا بينهما في الاسم فقالوا: « القلم احد اللسانين » (ستأتي البقيّة)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم العلّامة رشيد الخوري الشرتوني

١

علمٌ بنا الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر لأنهُ في ذلك العهد قد جرت حوادث الرواية التي نقصُّها اليوم على القارئ:

في ذات يوم من شهر شباط قارس البرد وغزير المطر شوهد خيّال راقياً في الطريق

المؤدية من برج صافيتا الى حصن سليمان في جبل اللكام المعروف اليوم بجبل النصيرية. وكان الخيّال رجلًا عظيم الجثة محكم الخَلْق قويّ العضل لفّ رأسهُ بكوفيّة كبيرة وعقد فوقها عقالًا ضخمًا أسمر اللون وكانت لهُ لحيـة كثيفة سوداء كالفحم تبين من تحت الكوفية محيطةً بوجهٍ أشرقت عليهِ أمارُ الشجاعة وشدّة القلب. وكان حاملًا بيسراهُ رمحًا طويلًا وُمرخيًا فوق عباءة لهُ من الصوف الاسمر المُعلَم بخطوط بيضاء. حمالةٌ تتدلّى منها قوس وجُعبة. وكانت القوس والجعبة في ذلك العهد السلاح المألوف عند اللبنانيين فلم يكن رجال الحرب منهم يتركونهُ لا في إقامة ولا في سفر(١

وكان الخيّال قاعدًا على سرج مقعّر كثير الارتفاع من ناحية طرفيهِ ورجلاهُ في ركابين من النحاس العريض يرتّان كلّما مسّا خاصرتي الفرس. أما الفرس التي تحتهُ فكانت من الخيل العربية الاصيلة وقد بلّلَ العرق بدنها اكثر من المطر الذي لم ينقطع لهُ خيط ومع ذلك كانت راقيـةً بنشاط في الطريق المتعوجة ما بين غابات السنديان والصنوبر الكاسيّين لمنحدرات الجبل. غير انّهـا لما انتهت الى عطفة في ذلك الشِعْب الضيق أجفلت بغتةً كأنها رأت شيئًا غير منتظر فالتفت الخيّال ليتبيّن سبب خوفهـا فشاهد صورة بشريّة تنساب بين الأدغال القائمة على يسار الطريق فاوقف فرسهُ ونادى قائلًا: « مَن الرجل » ولما لم يسمع جوابًا نادى مرةً ثانيـةً وأخرج من جعبتهِ سهمًا فوضعهُ على وَتَر قوسـهِ. وكأنّ الرجل المجهول سمع هذه الحركة فخرج من بين تلك الاشجار الملتفّة ووقف على يسار الخيّال وكان عظيم القامة وحشيّ المنظر ذا لحية سوداء طويلة وعينين براقتـين من فوق أنف طويل كأنهُ منقار النسر ولو كان الخيّال ممن سبقت لهم عادة بمشاهدة سكان جبل اللكّام لعرف ان ذاك المجهول هو أحد الشيعة الاسماعيليّة قطّاع الطرق الذين بثّوا مخافتهم في كل الناحية

حينئذٍ قال اللبنـاني بصوت شديد: ما وراءك ومن انت أصديق ام عدوّ ؟. قال هذا وقد وجّه سنان رُمحهِ الى صدر الرجل المجهول

— اني مسافر مسكين دهمتهُ الزوبعة. وقدْ أتيتُ من حصن سليمان

— أمن حصن سليمان أتيت ؟. قل لي اذًا كم يبعد حصن سليمان من هنا

— اذا لم تكن فرسك تعيانة تصل اليهِ قبل مضي نصف ساعة

(١) راجع مؤرخي القرون الوسطى كيعقوب دي ڤتري

— هل الاب يوحنا في الدير ؟

— كان في هذه الأيام بقصر القليعة غير أنهُ عاد امس الى مقرّه

— اذهب الآن في سبيلك ولكن اياك ان تتعرّض مرّة أخرى لتخويف فرسي والّا عاد عليك الامر وبالًا

— أسأل الله ان يسهل طريقك

ولمّا تباعد الخيّال قليلًا اخذ الاسماعيليّ يقول: « لقد اصبتَ حظًّا ايها الكلب اللبناني. ولو لم تكن راكبًا فرسًا من احسن الخيل ومتسلحًا بعدّةٍ كاملة لرأيت مني الموت الزؤام (١ . وتربة سيدنا راشد الدين انك لن تصل الى حصن سليمان. آه لو استطيع ان أنبّه رفقاني الذين شتّتهم الزوبعة »

وما كاد ان يفرغ من هذه الكلمات حتى دخل ما بين الادغال. ثم صفر صفيرةً كريهةً كأنهُ ينادي اصحابهُ غير أنهُ لم يسمع جوابًا

امّا الخيّال اللبناني فكان يُصَعِّد في الجبل مطمئن البال وهو يترنّم بالاغنية الآتية التي تذكر محاسن وطنهِ وأرزهُ العظيم

لبنان ملجا النصارى(٢ مأمن الرهبانْ حصنٌ حصينٌ وحامي حوزة الايمانْ
الحسن فيهِ تجمّعْ وارزهُ فتّانْ ومأزهُ كرثيٌّ وأهلهُ شجعانْ
في وسطهِ بشراي ذات العُلى والشانْ مدينةُ المقدّمينَ وافرس الفرسانْ

وهي من جنس الاغاني التي تعوّد اللبنانيّون انشادها على طريقة « الموالية » دون ان يلتزموا فيها مراعاة الوزن وكل احد يعرف انها تبعث على الغم والحزن بلحنها الشجيّ ومع ذلك انعشت الفرس فنفضت ما تعلّق من المطر على عُرفها وأخذت بنشاط ترتقي تلك الطريق الصخريّة كانها تسير في ارضٍ مطمئنة سهلة

وما زال الخيّال يجدّ في الارتقاء حتى وصل الى دارة الجبل لما توارت الشمس في الحجاب. وفي الدارة المذكورة وهيدة تشتمل على خراب هيكل قديم يُدعى بيت كيكي ويعرف عند سكان الجبل باسم حصن سليمان فحينئذٍ دقّ خاصرتي الفرس بالركاب فطارت بهِ مسرعةً حتى اوصلتهُ في اقل من لمح البصر الى السور العظيم المبني بالحجارة

(١ راجع المجلّة الاسيوية سنة ١٨٧٧ الجزء الاوّل (٢ قال المتنبّي :
وما الجبال لنصرانٍ بمانعةٍ ولو تنصّر فيها الاعصمُ الصدعُ

الضخمة حول هيكل المشتري غير انَّ المحلَّ المذكور لم يكن الغاية المقصودة من سفره فضلًا عن انهُ كان قليل الرغبة في مشاهدة الآثار العتيقة التي وقع منها تحت نظره انموذج غريب يستوقف الابصار (١

وعليهِ دخل وهو راكب فرسهُ من الباب الشمالي الى باحة فسيحة تراكمت فيها الحجارة الضخمة والعمد المتكسرة مع بقايا من اكمَّة العمد والنقوش. وبينما كان سائرًا في تلك الباحة صدم سُنبك الفرس رأس تمثال صنعهُ القدماء لابولُّون او لمينرفة فتدحرج على البلاط دون ان يبالي بهِ ثم تقدَّم الى الداخل حتى وقف تجاه هيكل او معبد مسقوف كائن بالتقريب في وسط الباحة الكبيرة وكان في هذا الهيكل قديمًا تمثال عظيم للبعل المعبود في بيتوكيكي يُصعد اليهِ بسلَّم بديعة الصنعة

غير ان البناية المذكورة مع كونها اعظم اثر باقٍ في سورية بعد قامة بعلبك لم تستوقف الخيال الحكي عنهُ للتأمل فيها فنظر اليها نظرةَ رجل غير حافل بشيء من محاسنها ولوى عنان فرسهِ الى اليسار ذاهبًا الى بنايةٍ أخرى واسعة الارجاء تبعد عنها نحو مئة خطوة

وكانت هذه البناية جامعةً بين اوصاف قلعةٍ ودير معًا لان حجارة جدرانها تضاهي بضخامتها حجارة هيكل المشتري السابق ذكرهُ وقد حُفر ضمن دائرةٍ على بابها الكبير رسمُ صليب جميل. فلما انتهى اليها الخيال ذهب منهُ الطرب كل مذهب وصرخ قائلًا: « ها قد ادركتُ الوطر ونلت المبتغى فلا ريب عندي ان الصليب الذي أشاهدهُ دليل على ان هذا البناء هو دير القديسة تقلا وقد حان لي ان استريح من مشقة السفر. فمن برج صافيتا الى هنا ما زلت أكافح المطر والبرد فطيبي نفسًا يا غزالتي »

قال هذا مخاطبًا فرسهُ التي كان يلاطفها بإمرار يدهِ على عرفها ثم أتمَّ كلامهِ معها وهو يقول: « ستجدين وراء هذا الباب معلفًا مملوءًا بالشعير ويجد خيَّالكِ المأوى والراحة اللذين اصبح كلانا في حاجة شديدة اليهما »

وكان الليل قد قرب وأوصدت الابواب واندرت الرُّوبعة بمزيد الاشتداد وكان الرهبان قد اجتمعوا لصلاة المساء فخاب الأمل الذي توقعهُ الخيال من المبيت في الدير.

(١ راجع مقالتنا في هذا الشان بمجلة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٠ ص ٣٠٦ (Revue de l'Orient Chrétien)

بيد انهُ حاول تنبيه من فيهِ بالصراخ والنداء فلم يسمعهُ احد لان الجدران كانت عاليةً ولم يكن في الخارج لا جرس ولا مطرقة فغضب وقلّب الرمح وضرب الباب بزُجّهِ ثلاث ضربات لعلّ أحدًا يجيبهُ . وكان الباب من خشب الزيتون مدرَّعًا بصفيحة ثخينة من الحديد فلم تحدث الضربة فيهِ غير دويّ رنَّ صداهُ في مماشي الدير وحمل الكلاب التي في ساحتهِ الداخليَّة على النباح الشديد

وكان الخيال شابًّا تغلي حرارة دمهِ في عروقهِ فاستشاط من الغيظ وأخذ يتأفف من اضطرارهِ الى المبيت تحت الفلاء في تلك الليلة الباردة وبينما هو يربط فرسهُ الى جذع شجرة من الخروب قريبة منهُ شاهد رأسًا عليهِ قبعة قد ظهر من نافذة صغيرة محتجبة فوق الباب بضخامة الحائط فبعد ان نظر نظرة تحفُّظ واحتراز ولم يشاهد غير رجل مسافر تقدَّم حتى بانت لحيتهُ البيضاء فقال: من الطارق وماذا تريد ؟

— انني رجل مسافر بل ضيف ساقتهُ العناية الالهيَّة الى هنا ومرادي ان ابيت الليلة في الدير

فعندها تفرس الراهب في سلاح الخيَّال ولم يصدّق انهُ ضيف بسيط ثم قال لهُ: ألا تعلم ان ابواب الدير تُغلق بعد غياب الشمس لان الأيام التي نحن فيها قد كثرت فيها القلاقل والاضطرابات

— انَّ فتحها يتعلق بك يا حضرة الاب والأنسب للروح المسيحي بل الاليق بدعوتك ان تُدخلني لا قضي ليلتي براحة والَّا عرضتني للموت بردًا على باب الدير

— أقصر ايها الخيَّال عن هذا التوبيخ الذي ليس تحتهُ طائل فاننا لا نحتاج الى من يُبصّرنا بواجباتنا فقد طالما اضفنا الناس وأويناهم في ديرنا . نعم انك تنزعج كثيرًا من قضاء ليلتك تحت المطر والبرد ولكن ما العمل والقانون لا يجيز لنا ان نفتح الابواب بعد مغيب الشمس الَّا باذن الرئيس وترخيصهِ . تربَّص قليلًا فها انا ذاهب اليهِ لأفاوضهُ في الامر

— حسنًا قلتَ فان لي مع الرئيس مسألة وقد أتيت في شأنها من لبنان

— فقال الراهب: هذا ما كان يجب ان تصرّح بهِ منذ الابتداء فقد عرفنا الآن انك صديق . . . !

ثم ادخل رأسهُ من نافذة المراقبة وأغلقها ومضى

وبعد دقائق قليلة سمع المسافر صوت مفتاح في داخل القفل الكبير ولما كان الصدأ قد علا اسنانهُ صرَّ صريرًا مزعجًا ثم انفتح الباب وخرج منهُ الراهب ودعا الخيَّال للدخول فدخل جارًّا فرسهُ بلجامها

وبعد ان جاز ممشيَين معقودين وصل الى باحة الدير الداخليَّة فغرز رمحهُ في الارض وسلَّم الفرس الى احد الخدم ومشى بعض الرهبان امام الرجل الغريب وهم يحملون مشاعل من خشب الارز كان لهيبها العَطِر ينوس فوق رؤوسهم وما زالوا يُدخلونهُ الغرف الفسيحة ويجيزونهُ الممشى الطويلة حتى أوصلوهُ الى المعهد المخصص بالضيوف وهو عبارة عن غرفة كبيرة معقودة لا زينة لها سوى بعض رسوم في الجدران على النسق البيزنطي مع بعض آيات من الكتاب المقدس بالسريانيَّة

وقد كتبت الآيات المذكورة على حيطان ناصعة البياض بحروف اسطرنجيلية جميلة لها لطافة اللون الازرق الاصلي وازدهار اللون القرمزي الخالص. وكان في السقف قنديل من سبع شُعَب دلالةً على مواهب الروح يرسل نورًا غير متساوٍ على جهات الغرفة فتضيء بعض انحائها بنورٍ لامع ولا يبعث الى الانحاء الأُخرى بسوى ضوء خفيف

وما كاد الخيَّال يدخل الغرفة المذكورة حتى خلع عباءتهُ المتبلِّلة بالمطر وبادر الرهبان فاتوا بنار ادفاء لضيفهم الذي خبَّلهُ البرد الشديد في تلك الجبال ولما استراح هنيهةً جاؤوه بطعام مؤلف من بعض البقول وشيء من اللبن وبعض الاثمار الناشفة واضافوا اليها كأسًا من الخمر الذهبية اللبنانية حفاوةً بالقادم

وكان الخيَّال في تلك الاثناء سَكوتًا عبوسًا لا يجيب الرهبان على ما خاطبوهُ بهِ من عبارات المجاملة والايناس الزائد بغير السلام الاعتيادي ولكنهُ لما فرغ من الاكل وتناول الخمر التي قُدِّمت لهُ انطلق لسانهُ

٢

فأخذ يتكلم قائلًا اني آتٍ من بشراي مُكلَّفًا بإبلاغ امر مهمٍّ الى حضرة رئيس الدير من قبل سيدي ومولاي المقدَّم رزق الله بن جمال الدين بن سيفا

فعند هذه الكلمات هاجت في الرهبان رغبة الوقوف على الأمر الذي أُرسل في شأنهِ وناتوا الى الاطلاع عليهِ. وكان كثيرون منهم لبنانيي الاصل فتحركت عند

ذكر وطنهم عاطفة الشوق اليه . ومحبة الوطن كما لا يخفى هي آخر ما ينطفئ في قلوب رجال الله من العواطف البشرية.

واما المقدَّم رزق الله فان جميع الرهبان كانوا قد سمعوا باخباره بل ان اكثرهم كانوا يعرفونهُ شخصياً فلهذا ودّوا ان يعلموا من الخيَّال فوق ما علموا غير انهم لم يتجاسروا على سؤاله لانَّ عظم قامته والشجاعة التي كانت انوارها تتلألأ ساطعةً على جبينه اوقعت في قلوبهم هيبةً لهُ ووقاراً

وبعد أن مضى زمن والجميع سُكوت استأنف الخيَّالُ الكلام قائلاً : بما اني مضطرٌّ الى السفر غداً عند طلوع الفجر ارغب لو سمحتم لي بمواجهة حضرة الرئيس في هذه الليلة لاقدم لهُ واجبات الاكرام وابلغهُ المهمة التي انا آتٍ في شأنها

فما نطق بهذا الكلام حتى اجاب الرهبان كلهم بصوت واحد قائلين: اننا لا نسمح اصلاً بسفرك . وان اصررتَ عرَّضتَ نفسك للعطب قبل مشاهدة لبنان . ألا تسمع زفير الزوبعة وصفير الارياح

وكأنَّ السماء ارادت وقتئذٍ ان تؤيد كلامهم فقصف الرعد قصفاً هائلاً اهتزَّت لهُ جوانب تلك البناية العظيمة وزادت الزوبعة شدَّةً وارسلت السماء سيولاً من المطر حتى تحوَّل وادي حصن سليمان الى شبه بحيرة من ماء

وكان الرجل الغريب يشتهي ان يستريح من اتعاب السفر الشاق الذي عاناهُ فوقع عندهُ الحاح الرهبان بمقامه عندهم موقع القبول . ثم تناول كأساً ثانيةً من الخمر فزادت لسانهُ انطلاقاً وجرأتهُ على مفاوضة الرهبان في اصل ديرهم قائلاً : اي شيء حبَّب اليكم الاقامة في هذه الجبال الموحشة البعيدة كثيراً من لبنان

فاجابهُ كبير الرهبان ان اصل هذا الدير قديم جداً ولا ريب انك عند وصولك الى هنا لاحظت أخربة الهيكل الكبير ففي هذا الهيكل كان الفينيقيُّون يعبدون اله البعل الذي عبدهُ الرومانيُّون بعدهم ولقبوهُ بالمشتري . وقد كان هذا الهيكل كسائر المباني الوثنية المشيدة في الجبال عشاً للدعارة ومرتعاً لانواع الفساد . فلما اكتحل قسطنطين الكبير بضياء النصرانيَّة صرف همتهُ في بادئ الامر الى ازالة هذا الشر فأصدر أوامرهُ الشديدة بهدمه ولكن لم يوجد من يجسر على تنفيذها لان الاهالي القيمين في جواره كانوا متعلقين به محبين لبقائه على حالته ولذلك طردوا اقبح طردٍ من ذهب

اليهم من المرسلين اصحاب الغيرة ليزيلوا اوهامهم في شأنه لا بل انهم جرّعوا بعضهم كاس المنيّة ايضاً . وكان برج صافيتا يدعى وقتئذٍ « أرجيروكسترون » ولم يكن يُشاهَد المسيحيُّون في محل سواه من هذه الجبال لانهُ كان مركز الحاكم العام على الناحية من قبل الامبراطور . ودام هذا الهيكل نحو قرن بعد وفاة الامبراطور غير ان عدد زائريهِ كان قد تناقص قليلاً فأمر الامبراطور تاودوسيوس الكبير بهدمهِ وقلب ما كان فيهِ من الأصنام

— وهل أتت اعمالهُ بما كان مأمولاً من النجاح ؟

— ان كل ذلك لم يُسفر عن شيء لانهُ بقي في هذه الجبال عدد غفير من الوثنيين كانوا يزورون خرَب الهيكل ويقدّمون فيهِ الضحايا على مذابح ينصبونها في التلال . فلما علم بما هو جارٍ اساقفةُ حمص وحماة واريتوزه ولاوديا ولاذقية لبنان(١ وايرمنية وباعنتل (الرستن) وبريمين وسائر المدن اخذوا يجدُّون في البحث عن افضل الوسائل واقواها لاستئصال ما كان باقياً من الآثار الوثنية . وكان ذلك بعد سنوات قليلة لوفاة القديس المعظم مارون الناسك الذي كانت كل سوريّة الشماليّة تتحدث وقتئذٍ بفضائلهِ السامية وكيف انهُ اقام مع تلاميذه بالقرب من هيكل للاصنام فحوّلهُ الى كنيسة لعبادة الاله الحقيقي (٢ فقرّت اراء الاساقفة على معالجة داء هذه الجبال بالعلاج الذي اصاب نجاحاً في بلاد قورش . وكان بالقرب من هيكل بيتوكيكي بناء كبير لكنهُ كهنة الهيكل المذكور فحوّلوه الى دير للرهبان وفي عهد الصليبيين التجأ اليهِ فريق من ابناء القديس مبارك الذين نحن خلفاؤهم الآن في هذا المقام

— قد فهمتُ كل ما اوضحتهُ لي ايها الاب المحترم وعرفت الآن نوع الهندسة الملتزمة في هذا البناء وبان لي سبب تصوير الجنّ والنسور التي اراها منقوشةً على جدران هذا الدير . وبينما كان احد الرهبان يهمّ بان يملأ لهُ الكاس للمرة الثالثة حوّلها عنهُ قائلاً : يكفي ما قد شربتهُ ايها الاب المحترم وينبغي ان لا اذهل اني في هذا الماء عينه لا بدّ لي من مبارحة حصن سليمان وكل عاقة تحصل تأتي بضرر بليغ فان القوم في بشراي يعدُّون ساعات غيابي عدًّا وينتظرون عودتي بفارغ الصبر

---

١) لاوديا تدعى الان شيجر ولاذقية لبنان كان مركزها في تلّ بني مندو

٢) راجع ثاودوريطوس في تاريخهِ الديني

فلما رأى الرهبان الحاح ضيفهم قام أحدهم مسرعاً الى غرفة الرئيس فلم يجده فسار الى الكنيسة فرآه مقبلاً على التأمل والصلاة العقلية . وكان الرئيس رجلاً فاضلاً وراهباً تقياً لا يخرج من قلايته الا الى الكنيسة للصلاة او الى املاك الدير القريبة لمزاولة اعمال الفلاحة

٣

كان الاب يوحنا رئيس دير القديسة تقلا شخصاً نادر المثال يبدو على وجهه من ملامح الاعيان والكبراء وفي حركاته من اساليب الكياسة والظرف التي كان يجتهد في اخفائها تحت برقع السذاجة ما يدل دلالةً واضحةً على انهُ خالط الاشراف قبل لبسه الثوب الرهباني وفضلاً عن ذلك فقد تجمَّل بمعارف واسعة وكان ما خلا العربيَّة والسريانية واليونانية يجيد كثيرًا من لغات المغرب

واما قامته فكانت مع طولها مستقيمة كمالية الرغم عن بلوغه الخامسة والسبعين من العمر وفي بعض الاحيان كانت تلوح في عينيه وسحياه هيأة السلطة والامر غير انهُ كان ينتبه لها في الحال فيقطعها بالابتسام . ولو قدرنا انهُ لم يكن رئيساً لكان من الممكن تمييزهُ حالاً عن الرهبان المحيطين به فقد كان يفوقهم بسامي مداركه اكثر مما كان يفوقهم بطول قامته

ولم يكن احد من الرهبان يعرف اصل الاب يوحنَّا معرفة اكيدةً . وكان اذا تكلم العربية يظهر في كلامهِ شيء من الرطانة ينبئ بكونهِ غريباً عن اللغة . وغاية ما كان قدماء الرهبان يعلمونهُ عنهُ هو انهُ منذ اعوام عديدة اتى من لبنان طالباً قبولهُ في دير حصن سليمان . اما قبل ذلك فلم يكن احد يدري بشيء من امره لاسيَّما وانهُ كان يحترز كل الاحتراز من التصريح باسمهِ قبل ترهبه ولهذا كان اخوتهُ الرهبان يتوقون بزيد الرغبة الى تمزيق حجاب الخفاء عن حقيقة حالهِ وكان قد شاع بينهم انهُ رجل من ابناء أسرة شريفة جدًّا في بلاد المغرب قام منها عدد من الملوك فحكموا اورشليم في عهد الصليبيين وانهُ لما جاء ذات يوم الى زيارة قبر السيد المسيح احبَّ ان يدفن مجد اجدادهِ وفخارهم بانحيازه الى الرهبانية

هذا ما كان يتحدث بهِ الرهبان المذكورون ومما اتفق لأحدهم انَّهُ اشار ذات يوم بحضور الرئيس المذكور الى شرف أسرته اشارات طفيفة فلاقى منهُ توبيخاً مرًّا اذ قال لهُ :

هل تجهل ايهـا الاخ ان الراهب ينبغي ان يموت عن الدنيـا وانهُ ما عاد يحق لنا ان ننتبه الى ما وضعهُ المجد العالي من الامتيازات واذا كانت المساواة واجبةً على أحدٍ فهي على الرهبان اوجب لانَّ القضية في الدير هي الوسيلة الوحيدة للامتياز

غير انهُ بالرغم عما اتصف بهِ الاب يوحنا من الاتضاع كان الاعتبار المخوف بهِ من قبل بطريرك لبنان والمقدم رزق الله والاب غريغوريوس يدني الاشاعات السابق ذكرها الى الصدق ويقرّبها من الحقيقة لاسيَّما وقد عُرف انهُ تولَّى مدة من الزمن تهذيب اولاد مقدم بشراي. ولما شاهد اللبنانيين يغالون في اكرامهِ فرَّ الى احدى المحابس في وادي قديشا فاختبأ بها. وكانت محبسته هناك عبارة عن غارٍ من الصخر معلق بين السماء والارض فقضى زمناً وهو يعيش عيشة الملائكة الابرار. ولكن لما درى بهِ الناس بادر في الحال فاتى يطلب ملجأً في هذه الناحية المجهولة من جبل الساق حيث صار قدوةً للرهبان ومثالاً لهم في تواضع والكفر بالذات. ومع انهُ شيخ متقدم بالخامسة والسبعين من سنهِ كان يحافظ كل المحافظة على الصيامات (ستأتي البقيَّة)

بديعية الخوري ارسانيوس الفاخوري

في الطفل يسوع

قد ورد في ديوان الخوري ارسانيوس الفاخوري ثلاث بديعيَّات طُبعت منها اثنتان. وهذه الثالثة لم ترَ دون طبع فاحببنا نشر نبذةٍ منها بمناسبة اعياد الميلاد وشهر الطفل يسوع (المشرق)

الالتزام	إني لأحكام القضاء مُسلِّمُ ولساني حالي بالهوى متكلِّمُ
الجناس الملفَّق	ظبيٌ أوى قدمي بسَعْيٍ في هوا هُ قد اراقَ دمي لأني مُغرَمُ
التفصيل	قد افتنَّ العشَّاقَ باهي حسنهِ فالحسنُ فيهِ جوهرٌ لا يُعدمُ
الاستطراد	أنواره للعين قد راقت كما قد راق بدرٌ في ليالٍ تُظلمُ
المدح بمعرض الذمّ	لا عيب فيهِ سوى جمال باهرٍ تُرى بهِ الاقمارُ ثمَّ الانجمُ
الاطراد	ابنُ البتولة مريم وابنُ العلي ويسوعُ يُدعى ذا الوليدُ الاعظمُ
الاعتراض	في النار مولوداً بدا وهو القدي م يمُ فأرضعتْهُ من حليبٍ مريمُ
الجمع مع التقسيم	ولهُ الملائكُ في ذراهُ بخدمةٍ فمُهلِّلٌ ومُسبِّحٌ ومُرنِّمُ